مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 54 (ربيع 2003)، ص 29

سيلڤي منصور*

الطفولة الصعبة في غزة**

نظراً إلى حجم الوسائل العسكرية التي تستخدمها إسرائيل في قمع الانتفاضة الثانية بات الحديث يزداد عن الأحداث الفلسطينيين بصفتهم ضحايا أكثر من كونهم طرفاً فاعلاً في النزاع. فالانتفاضات تتوالى، ويجب عدم الخلط بينها. غالباً ما تنقل وسائل الإعلام الغربية معاناة الأحداث: أولاد يبحثون عن أغراض خاصة وسط ركام منزلهم الذي دمرته الدبابة الإسرائيلية؛ طفل ممدد على سرير أحد المستشفيات؛ ولد أصابه الرعب عند إحدى نقاط التفتيش العسكرية؛ أولاد يساهمون في أنشطة علاجية... لكن الولد "الفاعل" يظهر في ملامح صور المواجهات: إنهم في الإجمال صبية تجاوزوا الثانية عشرة من العمر، يقومون بشكل أساسي برمي الحجارة على سيارات الجيب المصفحة أو على الدبابات في أزقة مخيم جنين، أو في نابلس، أو في البلدة القديمة في الخليل، أو أيضاً في إحدى النقاط الساخنة من قطاع غزة. ومع أن حجارتهم لا تعرض حياة الجنود للخطر – الجالسين في مأمن داخل دباباتهم – فإن ردة الفعل تجاه الصبية تكون قاتلة في أحيان كثيرة. لكن الأولاد يعاودون "الهجوم"، وإذا سألهم صحافي صودف وجوده في الجوار، يضيفون إلى مشاريعهم استعدادهم للاستشهاد. اضطراب في الصور والتصورات أمام مُشاهد التلفزة الغربية: هل أن الأحداث الفلسطينيين "ضحايا بريئة" – بحسب العبارة المستخدمة في أثناء الحرب – أم أنهم إرهابيون محتملون؟ ما هو الرابط بين سلوكهم واللعب؟ كيف وصلنا إلى هنا؟

سأحاول عبر تجارب معاشة من جانب صغار مخيمات اللاجئين في قطاع غزة أن أقدم بضعة عناصر، لا للإجابة وإنما لاستكشاف الموضوع على الأقل.

كانون الثاني/يناير 2003، قطاع غزة

الأطفال السبعة المجتمعون في ذلك اليوم تتراوح أعمارهم بين 12 و13 عاماً. قبل وقت قليل تجمعت لدى معلميهم وأهلهم مجموعة من المعطيات المتعلقة بسلوكهم، فعُثر على الوصية التي أراد كل واحد منهم تلاوتها، إضافة إلى الأقنعة التي سيغطون بها رؤوسهم ووجوههم في اليوم الموعود: أكياس من الخام أخذوها على الأرجح من بين أيدي أمهاتهم، وكانت تحوي في الأصل سكراً أو أي مواد أُخرى، أو استُخدمت لتصفية اللبن من أجل الحصول على اللبنة. وقد فتحوا فيها دائرتين مكان العينين،

(*) عالمة نفس تعمل في فلسطين.
(**) النص مترجم عن الفرنسية.

ومعها عصابة الرأس وشعار الحزب السياسي: العدة كاملة.

هل أرادوا اللعب بالحرب وتوزع الأدوار من أجل الحصول على الإثارة؟ في كل الأحوال كانوا قرروا الاستشهاد والقيام بـ "عملية" ضد مستعمرة إسرائيلية في قطاع غزة. لم يكونوا أول من قام بذلك. فبضعة سيناريوهات من هذا النوع، لا يتجاوز عددها لحسن الحظ عدد أصابع اليد الواحدة، نُفذت فعلاً منذ بدء الانتفاضة الثانية من جانب أحداث استخدموا أسلحة ساخرة – غالباً سكين مطبخ غير مسنون – وانتهت إلى سقوط الأولاد قتلى، أو كما جرى مرة واحدة إلى اعتقالهم وسجنهم، علماً بأنهم لم يشكلوا في أية لحظة تهديداً حقيقياً للمستعمرات.

هذه المرة لن ينتقلوا إلى الفعل، أو هذا ما يجب أن نتمناه. فالكبار اكتشفوا المخطط قبل تنفيذه، وتم وضع مشروع لمساعدة الأولاد على التطلع إلى مستقبلهم بصورة بناءة أكثر. يبقى أن الظاهرة مثيرة للقلق وتطرح أسئلة على الأهل والمدرسين في مناطق المواجهات الساخنة، الأمر الذي يدفعهم إلى الأخذ بجدية تصريحات يطلقها الأولاد أكثر فأكثر، من نوع: "أريد أن أموت شهيداً." طبعاً إن النيات ليست جدية في كل مرة. فالشهيد ليس من يسقط في عملية مقاومة مسلحة فحسب، بل من يقضي نتيجة توغل إسرائيلي أيضاً. والاستعداد للشهادة يعني إذاً تقبل المصير، كما يمكن أن يدلل على الرغبة في الانخراط في الكفاح المسلح. وهناك أيضاً الصغار الذين يرددون ما يسمعونه من أفواه الكبار، أو من يحاولون التباهي والإثارة أمام الأجانب، وخصوصاً أمام الصحافيين. وهناك أخيراً من هو جدي في قوله – ولو أننا نشعر بأنه لن يفعل شيئاً – والذي يضيف ملاحظة في العادة من نوع "هيك هيك نحنا ميتين." ندرك عند الإصغاء إليهم أن مشروعهم ليس قتل العدو، وإنما إيجاد وسيلة لتحديه وتقديم البرهان أنهم ليسوا جبناء على الرغم من تفوقه، وأنهم مستعدون لتقديم حياتهم في سبيل فلسطين، وكي يبرهنوا لهذا العدو أن تفوقه العسكري لا يفيده في شيء. وبما أن خطر الموت متزايد في هذه الأيام، فالأفضل اختيار التوقيت والظرف، وخصوصاً أن لا دوافع للتعلق بهذه الحياة. وهذا ما يحاولون قوله.

من جهة الأهل

بالنسبة إلى الكثيرين من الأهالي تمثل لحظة الخروج من المدرسة مصدراً للقلق: لماذا لم يرجع بعد؟ أين هو الآن؟ عساه لم يقترب من إحدى المستعمرات! إذا كان الصبيان هم المقصودون بالأسئلة فلأن البنات نادراً ما يتجرأن. طبعاً إنهن يعلن رغبتهن في الاستشهاد ويكتبن "الوصية"[1] ويتبادلنها ويتناقشن فيما بينهن ثم يعدّلن الصيغة وفقاً لتطور الأحداث وتبدل الأمزجة كما يكتب غيرهن يومياته الخاصة. لكن إذا تجاسرن على التوجه كما الصبية في مجموعات صغيرة إلى نقاط المواجهة

فهناك دائماً بينهن فتاة تقنعهن بالعدول والعودة إلى بقعة أكثر أماناً. وهذا ما يتناسب مع ما نعرفه في علم النفس من فوارق في السلوك بين الصبيان والبنات في فترة المراهقة: الضيق والمعاناة النفسية لدى الصبيان ينزعان إلى التعبير عن أنفسهما بالأفعال بينما يأخذان عند البنات شكل الاضطراب العاطفي أو اضطرابات المزاج، كل ذلك في إطار اندماج هؤلاء المراهقين في الحياة الاجتماعية وفي الحالات المتعددة.

وهؤلاء الأهالي، الذين يقتلهم القلق مع انتهاء الدروس، ولا يرتاحون إلاّ مع عودة جميع أعضاء العائلة إلى المنزل (وهو ارتياح قصير الأمد إذ تعود الدبابات والطوافات والرشقات النارية مع هبوط الليل لتزرع قلقاً من نوع جديد)، هم أنفسهم الذين يطلقون في وسائل الإعلام تصريحات تخيف الرأي العام الغربي، وفحواها أنهم فخورون باستشهاد ابنهم، وأنهم مستعدون للتضحية بالباقين، ويرفضون التعبير عن أي ألم، ويصرون على تحويل الجنازة إلى عرس. ماذا نفهم من وراء هذه التصريحات التي تطفو إلى سطح هذه التقارير الصحافية؟

لنبحث أولاً في دوافع الصحافي. فإطار العمل ليس في الغالب تقريراً في عمق الأحداث، وإنما هو تعليق سريع على ما حدث: يطرح الصحافي سؤالاً عاماً ويكتفي بالإجابة الأولية غير المركزة، وهو غالباً لا ينزعج من طابع الإثارة في الإجابات. وبعض الصحافيين يتلذذ، على ما يبدو، بهذا الصنف من التصريحات، ولا سيما أن في ذلك ما يؤيد الادعاء القائل إن الفلسطينيين خاصة، والمسلمين عامة، هم إرهابيون بالقوة وفي عجلة من أمرهم للصعود إلى الجنة.

إذا التفتنا إلى الأهل الذين تطرح عليهم الأسئلة نفهم إجاباتهم انطلاقاً من محورين رئيسيين. أولاً يستخدم القريب الصحافي لتوجيه رسالة إلى العدو (الجندي أو المسؤول السياسي الإسرائيلي): لن تتوصل إلى قتلنا جميعاً، وها هو تصميمنا لا يلين مهما يبلغ تفوقك العسكري. هل يمكن أن نلومه على عدم الظهور في مظهر الأب، أو الأم التي تبتهل علناً كي توفر حياة أبنائها؟ ماذا يبقى للأهل من كرامة تمكنوا من الحفاظ على بقاياها بعد كل أشكال الإذلال فيما يتعرضون له من عقاب جماعي؟ أمّا المحور الثاني فيقع على مستوى النفسية الفردية: من خلال إنكار العذاب وادعاء الفخر والفرح، يلجأ الأهل إلى الفكرة السحرية التي تمكنهم من أن ينكروا أمام أنفسهم ما يلحقه بهم الحدث من دمار. إنها آلية هشة للدفاع الذاتي كون الأهل سيدركون بعد قليل، وبعيداً عن الميكروفونات والحشد، حجم الخسارة واليأس ليبدأوا الحداد الحقيقي ويشعروا خلاله بما يشعر به سائر الأهل في الظروف نفسها؛ ومن هذه الأحاسيس الشعور بالذنب، ولو أن المجرم الفعلي هو سائق الدبابة الذي اعتقد أن من المناسب إطلاق قذيفة على صبي يقترب بحجر من آليته. لم ينقل الصحافي ردة الفعل الحميمة هذه؛ وحدهم الأقارب و"المرشدون"،[2] الذين يزورون "عائلات الشهداء" ويواكبونها في

حدادها، سيكونون شهوداً على ذلك.

لكن لنعد إلى الفتى. لماذا يواجه الدبابة بالحجر، ولماذا يقترب من سياج المستعمرة وبيده سكين مطبخ، أو في حالات نادرة حاملاً "الكوا"[3] المشهورة في جنين وقطاع غزة على وجه الخصوص؟ من أجل فهم تصرفه هذا، يجب إعادة وضعه ضمن إطار نمو الولد ومعاشه اليومي، وضمن إطار الإشكالية الفردية والعائلية.

من جهة الولد

تطور الاكتساب الثقافي للصبي الفلسطيني

يستطيع الأولاد الفلسطينيون، حتى في أعمار فتية، أن يشرحوا ما يحدث في فلسطين حيث التحديات. ويمكن أن نفهم بسهولة[4] هذا التسييس المبكر الذي يعتبره البعض نتيجة جهد عقائدي وتحريض إرادي من الأهل والمدرسين ورجال الدين والأحزاب السياسية والمجتمع الفلسطيني بشكل عام.

فالفتى الفلسطيني كسائر أولاد العالم لا يترعرع في مناخ منزه ومحمي من صعوبات الدنيا كافة. وإنها ليست أفضل خدمة تسدى إليه إذا تُرك ينمو بعيداً عن شجون العالم. فهو سمع أهله وأجداده يروون نضالاتهم والمظالم التي عانوها. وصغار الفرنسيين الذين ولدوا بعد سنة 1945 سمعوا هم أيضاً روايات التهجير والمقاومة، ولم يتحولوا إلى مقاتلين، لأنه تم الاعتراف بالأضرار وقدمت عنها التعويضات المهدئة، كما سمح الإطار العام بالمساكنة بين مشاعر الإعجاب بالمقاومين القدامى وبين الرغبة في بناء الغد مع عدو الأمس.

لكن المشكلة هنا أن تاريخ فلسطين لم يتوقف عند هجرة سنة 1948 الأولى، إذ تلاها احتلال الضفة الغربية وغزة بعد سنة 1967، ثم الانتفاضة الأولى، واليوم الانتفاضة الثانية. فموكب المآسي يطول، والفتى اليوم لا يتعرف على الطبيعة السياسية الحقيقية لدولة إسرائيل بواسطة شقيقه الأكبر، وإنما من خلال ما يراه ويتلقاه في جسده. وهو لا يحتاج إلى من يحرضه، إذ أمامه في كل دقيقة برهان على التعسف والظلم. فضربات الجنود تطاله في بيته، وفي قاعة الدرس وملعب المدرسة، وتمنع والده من العمل ووالدته من الذهاب إلى المستوصف، وتقفل أمامه باب الحلم والتخطيط للمستقبل. إنه ليس بحاجة إلى من يبرهن له أو يلقنه بالقوة، فالحياة اليومية تزوده الثقافة السياسية التلقائية.

لكن البعض يبحث دائماً عن تفسير آخر: سال كثير من الحبر لتقديم البراهين على أن هذا الوعي السياسي نابع من كتب مدرسية حاقدة وعنصرية، وأن المدارس تعد جيلاً جديداً من المتعصبين.[5]

وإذا ما أخذنا مثالاً مدارس الأونروا نلاحظ أن الوضع مختلف: فمنذ بداية عمل

الوكالة تم توقيع اتفاق مع اليونسكو والدول العربية المضيفة للاجئين تُعتمد بموجبه الكتب المدرسية الخاصة بهذه الدول لأسباب شرعية وعملية في آن واحد. وهكذا فإن مدارس مخيمات الضفة الغربية كانت تتبع المنهاج الأردني قبل قيام السلطة الوطنية الفلسطينية، بينما كانت مدارس غزة تتبع المنهاج المصري. وبقي هذا المنهاجان على حاليهما بين سنة 1967 وسنة 1994، إذ منعت السلطات الإسرائيلية تغييرهما.

في سنة 1995، وبالتعاون مع اليونسكو، عمدت السلطة الفلسطينية إلى مراجعة المنهاجين بمساعدة باحثين وأخصائيين من العالم أجمع. وقد بدأ الاعتماد المتدرج للكتب الجديدة في سنة 2000. ومنذ ذلك التاريخ انكبت عدة فرق من المحللين على دراسة هذه الكتب. وجاءت أعمال عدوان وبراون لتبرهن أن لا صحة للانتقادات التي قدمها "مركز مراقبة نتائج السلام" بإدارة إيتمار ماركوس،[6] المستشار السابق لبنيامين نتنياهو. يخلص سامي عدوان، في نهاية دراسته للكتب المدرسية، إلى القول: "إن النصوص الفلسطينية تصف الحياة والثقافة الفلسطينيتين بهدف بناء هوية فلسطينية والمحافظة على الثقافة والتاريخ. لم يشأ (‹مركز مراقبة نتائج السلام›) أن يرى فيها سوى تهديد لإسرائيل، و/أو نزع الشرعية عن وجود إسرائيل كدولة."[7] أمّا ناتان براون فيكذّب بدوره ادعاءات مركز ماركوس، ويسترجع الفكرة القائلة إنه "مع ما ينجم عن المواجهات اليومية ربما لا يكون ما تقوله الكتب والأساتذة متناسباً على الأرجح بما فيه الكفاية مع واقع المعاناة."[8] من جهة أُخرى، شجعت هذه الدراسات الباحثين على النظر في مضمون الكتب المدرسية الإسرائيلية وتقديم البرهان على أن الإسرائيليين ليسوا في موقع من يقدم الدروس والعبر في باب الموضوعية التاريخية ورفض الآخر واللجوء إلى الصور النمطية السلبية. كما يمكن التساؤل عما إذا كان هناك بلد في العالم تعتمد فيه الكتب المدرسية رؤية موضوعية فعلاً للتاريخ، وخصوصاً إذا تعلق الأمر بالتاريخ القريب.

ما ينطبق على الحياة الجنسية للصغار يصح أيضاً في وعيهم السياسي. فيوم أشار فرويد إلى حياتهم الجنسية ارتفعت أصوات التنديد كأن الموضوع يتعلق بالملائكة الذين لا جنس لهم. كما لا يفترض أن تكون لهم آراء سياسية إلاّ إذا أُدخلت في عقولهم عن طريق تلاعب الكبار الضالين بهم. فهل يعقل أن يكون الأحداث الفلسطينيون – أو بالحري الأولاد الذين لا يعيشون في الديمقراطيات الغنية الكبرى – الوحيدين الذين يتعاطون الشأن السياسي، أو الوحيدين الغارقين في عالم المشاعر العنيفة الناجمة عن النزاعات التي يتسبب بها الكبار؟ ألا يفترض بكل منا أن يكنس أمام باب داره؟ ربما أن النقاشات التي تدور حالياً بين التلامذة في ملاعب المدارس في أوروبا أو الولايات المتحدة بشأن الحرب في العراق، تساعد الأهل كي يدركوا الدور الكبير الذي نؤديه جميعاً في الوعي السياسي لأولادنا، وكم أن أبناء "الديمقراطيات

الغربية" مشبعون بقيم ورؤى أهلهم السياسية، سواء في فرنسا أو الولايات المتحدة أو إسرائيل أو فلسطين. علينا في هذه اللحظات أن نظهر بعض الأمانة والإقرار بمشاعر الفخر التي تستبد بنا عندما نسمع أولادنا يعبرون عن قناعات سياسية مشابهة لقناعاتنا. فلِمَ نعجب من نظرة الاعتزاز التي ترتسم في عيون الأهل من الفلسطينيين ساعة يصغون إلى ابنهم أو ابنتهم يستنكران المعاناة ويعلنان رغبة في المقاومة؟ هذه اللمحة من الاعتزاز هي التي تؤكد اندراج الصبي في تاريخه وإنسانيته، وهي تثبيت لهويته وحامل لمعنى الحياة. كما يمكن أن يمثل ذلك طبعاً بداية انزلاق: الحماسة للتبني غير النقدي لمُثل الأهل العليا والحزب السياسي، أو لقيم المجتمع، والوصول إلى سلوك مسلك العنف الأعمى. لكن هذا الانزلاق ليس خاصاً بالأهل الفلسطينيين، وإنما يتهدد الأهل جميعاً ويتكشف زمن الحرب خاصة. ففي دول تنعم بالرفاهية، ولم تعرف الحروب منذ أعوام مديدة، ولها حدود آمنة ومعترف بها، بحيث لم تعد بحاجة إلى التلويح بألوان علمها واستغلال أدنى مناسبة لإطلاق النشيد الوطني أو مرافقة الأولاد جماعة لوضع باقات الزهور على أضرحة الموتى، من السهل في واقع الحال إبعاد الصغار عن الغرق المبكر في وحول السياسة. لكن هنا مَنْ المذنب؟ الأحداث الفلسطينيون؟ أهلهم؟ مدرسوهم؟ أم الاحتلال الإسرائيلي؟

تعترف الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل بالحقوق السياسية للأحداث: حرية التعبير (المادتان 12 و13)، وحرية إبراز القناعات (المادة 14). كما تنص المادة 29 على أن "تربية الولد يجب أن تهدف إلى تلقينه احترام أهله وهويته ولغته وقيمه الثقافية، إضافة إلى القيم الوطنية الخاصة بالبلد الذي يقيم به أو الذي يتحدر منه، وتلك الخاصة بسائر الحضارات." من البديهي أن مواقف الصغار ورؤيتهم، سواء في فلسطين أو خارجها، تتبلور وفق السن ودرجة النضوج، وأن تربية قائمة على تنمية الفكر النقدي واحترام الآخر من شأنها وحدها أن تضبط مخاطر الانزلاق.

من اللعب إلى الجد، مع خطر الانزلاق

الصغار جميعهم يلعبون لعبة الحرب، فكيف بالذين يعيشون الحرب؟ يتسلى أولاد فلسطين خلال الانتفاضة الثانية، كما خلال الأولى، وعلى غرار أولاد لبنان وكوسوفو أو العراق، بتمثيل المعارك التي يشهدونها من الرشقات التي يطلقها الجنود الإسرائيليون على التظاهرات ومواكب تشييع الضحايا. واللعب كالرسم حيث الولد يمثل ويرسم ما يشاهده في حياته اليومية وفقاً لحاجاته الداخلية ولردات فعل الكبار تجاه ألعابه. وكما يقول بتلهايم: "يجب ألاّ ننسى أن إحدى وظائف اللعب فيما يخص رفاهية الولد هي توفير الفرصة له كي يحل مشكلاته العالقة مع الماضي، وتحمّل ضغوط الحاضر، وتجريب أدوار متنوعة وأشكال متعددة للتفاعل الاجتماعي من أجل تحديد المناسب منها له."[9] ويقول أيضاً: "إن لا سبب يدعو إلى فرض نوع معين من

الألعاب على الصغار، ولا كذلك تشجيعهم على استخدام الألعاب الحربية مثلاً. عليهم، سواء منهم الصبيان أو البنات، أن يقرروا متى يرغبون في هذه اللعبة العدائية أو تلك. وعلينا قبول اللعبة المختارة بما هي عليه حيث تمثل في تلك اللحظة نشاطاً مهماً بالنسبة إليهم. والأهم في حاضر الولد ومستقبله أن يقتنع أهله في العمق بأنه كائن جيد وسيبقى كذلك في الكبر.″(10)

يمكن الاعتقاد أن إعادة تمثيل النزاعات والمشاهد المثيرة للقلق التي يواجهها الطفل هي بمثابة علاج ذاتي، أو ما يمكن تسميته العلاج الوقائي: فالولد يحب تكرار المشهد وتدجينه وتقليبه إلى أن يشعر بأنه يسيطر عليه. يستبدل دوره السلبي بدور إيجابي في مرحلة اللعب الانتقالية. لكن ما يحدث في هذا النوع من المشاهد مسار من الاكتساب الثقافي، إذ يكون السيناريو تعبيراً عن الوعي السياسي لدى الصبي، وفي الوقت نفسه تغذية لهذا الوعي وترسيخاً له. فاللعب يساهم في تنمية هوية الصغير الفلسطيني الذي يعلن من خلال تماهيه مع أبطال الانتفاضة وقوفه في الخط الذي حددته عائلته والشعب الفلسطيني.

يمكن أن تأتي عندها لحظة يتم فيها الانتقال من اللعب إلى الجد، إن لم يكن إلى الخطر: عندما يحوّل الصبي لعبته إلى اعتراض يمكن أن يصبح الفعل اعتراضاً سياسياً. لكن متى يتحول اللعب إلى اعتراض؟ من يحدد تلك اللحظة؟ يوم يرمي الصبي حجراً في اتجاه الجيب العسكري أو المدرعة، فإنه يعترض والجندي يعرف ذلك. لا تعد اللعبة لعبة عندما يبرز الخطر، الخطر من إصابة الصبي برصاص الجندي أو على من يمكن أن يصيبه الحجر (وهو خطر نسبي بالمقارنة مع ما يمكن أن يتعرض له الصبي الذي قد يصاب بقذيفة من مدفع الدبابة كما تبين من تكاثر ما يسميه الجيش الإسرائيلي ″أخطاء″). فالصبي، وتبعاً لسنه، ليس قادراً على استباق الخطر (الذي يتعرض له، أو الذي يمكن أن يعرض الآخرين له)، وخصوصاً إذا أدركنا أنه لا يعي إلاّ متأخراً نسبياً أن الموت حدث نهائي.

كما يتعلم الصبي من ردات فعل القريبين منه المعنى المحتمل للعبته وتحدياتها: فالأهل يشعرون تارة بالاعتزاز من ″فلسطينيته″ المبكرة، ويقلقون تارة أُخرى من أن تؤدي لعبة النضال الخاصة به إلى حالات مواجهة عنيفة مع جيش الاحتلال (النظرة إلى الولد هنا باعتباره غير راشد ويفترض تأمين الحماية له)، أو ينشغل بالهم أحياناً نتيجة هذا العنف الصبياني الذي تقترب منه اللعبة (ضرورة مراقبة تجاوزاته). وكما في لعبة القفز برجل واحدة، يدفع كثيرون من الأولاد الفلسطينيين الحجر من مربع إلى آخر في لعبة تقليد ولعبة علاج تقود البعض، وهم قلة، إلى العنف الهادف سياسياً.

إذا كان الأهل والمربون الفلسطينيون اعتادوا منذ أعوام رؤية الأولاد يلعبون لعبة الفلسطيني والجندي الإسرائيلي بدل أن يلعبوا لعبة الشرطي والحرامي، أو راعي البقر

والهندي، فإن ما لفت انتباههم في الأشهر الماضية (وخصوصاً منذ حصار مخيم اللاجئين في جنين) ظهور ألعاب جديدة وإعلان نيات يزيدان في إزعاجهم.

هكذا تنقل إحدى الأمهات من مجموعة في قطاع غزة ملاحظاتها: ابنها يلعب مع أولاد آخرين من الجيران، تتراوح أعمارهم بين الخمسة والسبعة أعوام. صنعوا لأنفسهم حزاماً وربطوا حوله أكياساً صغيرة من البلاستيك الملآنة بالماء... سينفذون "عملية ويموتون كشهداء".

طبعاً ليس بمجرد أن يلعب الولد لعبة قيادة الشاحنة يصبح ذات يوم سائقاً للناقلات البرية كما يقول أيضاً بتلهايم، لكن فيما يتعدى الطرفة يجب التوقف عند هذه الظاهرة الجديدة التي تطرح مزيداً من التساؤلات أمام المجتمع الفلسطيني: إن الولد الذي يلعب يلاقي صعوبة في تمثيل مشاريع مستقبلية فيتماهى أكثر فأكثر مع أبطال من الشخصيات الميتة، و"الاستشهاد" يبدو موضوعاً تعبوياً لألعابه وأحلامه.

بحثاً عن التفسيرات

قبل محاولة فهم هذه التطورات الحديثة نسبياً يجب التأكيد بوضوح أنه لو تم تطبيق مسار السلام الذي بدأ سنة 1994، ولو لم يكثر الجيش الإسرائيلي من أعمال العقاب الجماعي والإذلال منذ عامين، لكان الصغار في غزة وجنين مشغولين اليوم بتحريك طائراتهم الورقية، أو بمباريات كرة القدم، ولكانت البنات مشغولات بلعب أدوار الأب والأم والمدرّسة، ولكان الجميع يركزون على فروضهم المدرسية وعلى التخطيط بحماسة لمشاريع المستقبل.

لكن بدل ذلك كله، ما هو الواقع اليومي لصبي في رفح على سبيل المثال؟ لم ينم ليلة واحدة على الأرجح منذ أشهر من دون أن يسمع الرشقات النارية وتحركات الدبابات وتحليق الطوافات، وقد يكون من هؤلاء الأولاد الذين أعيد إيواؤهم تحت خيمة لأن منزلهم هدم في الأشهر الأخيرة. إنها لمفاجأة أن يستيقظ في الصباح ويجد نفسه لا يزال في قيد الحياة.

ضمن مجموعة من الأحداث يتناقشون مع أحد المرشدين في إجراءات الوقاية في المنزل ضد الأخطار (البقاء داخل البيت عند سماع الرصاص، والابتعاد عن النوافذ، والتأكد من أن جدارين يفصلانك عن الخارج، وإغلاق الغاز...) يرتفع بصعوبة صوت وسط هذه الاقتراحات البناءة التي يقدمها الصغار ليسأل: "وإذا لم يكن هناك من مكان محمي في بيتنا، ما العمل؟"

ما العمل؟ نتكل على حظنا، أو على برجنا – أو على الله فيما يخص الفلسطينيين الصغار. عند الصباح يذهب الأولاد إلى المدرسة وهي لم تعد بالمكان الآمن، وخصوصاً إذا كانت تقع على بعد أمتار من الحدود مع مصر ويطل على ملعبها برج مراقبة للجيش

الإسرائيلي. في المدرسة يجب التركيز على الفروض وإلاّ فالمصير الرسوب. لكن ما هو سر التركيز؟ لا تَوافُق بين التركيز والقلق. الفرص مختصرة، والسبب أن المدارس تعمل في معظمها بدوامين، لذا يجب استخدام الوقت بأفضل الطرق لإنهاء البرنامج. لا وقت فعلاً للعب والرسم إلاّ لمن يحظون بمرشد في مدرستهم يناضل للحصول على حصة يرتاح خلالها الصغار من قلقهم أو يمارسون بعض الأنشطة الترفيهية التي ينظمها بعض المنظمات غير الحكومية. في العودة إلى البيت يجد الصغير التلفاز يعرض، على الأرجح، صور أحدث المواجهات في فلسطين، والجرحى والجنائز، والوضع المزري لمستشفيات العراق. الأهل في أقصى حالات التوتر بسبب الغموض الذي يلف الغد، والأب يطرح على نفسه السؤال الاعتيادي – أين يجد عملاً – والأم تحاول تهدئة صراخ الأطفال وعراكهم. ويبدأ الظلام بالهبوط حاملاً معه موكب المخاوف. فلا مجال للتخطيط لعطلة نهاية الأسبوع أو للعطلة المقبلة: لا مجال لفعل أي شيء، لا أحداث سعيدة في الأفق، انتظار فقط من سيكون التالي في لائحة الضحايا. "هيك هيك نحنا ميتين" يقول الصغار كما الكبار.[11]

تقود مراكمة التوتر والحرمان إلى ازدياد ظواهر الإحباط وإلى مزيد من الصعوبات في توجيه العدائية والعنف. عندها يحاول الفلسطينيون، على مستوى الفرد أو الجماعة، بلورة آليات جديدة للدفاع الذاتي، أو بالأحرى آليات للتأقلم أكثر عملانية. وهي لا تسمح دائماً بتفادي بروز الظاهرة المرضية المفاجئ. على مستوى الجماعة، ومن أجل تأمين بعض الدعم المعنوي للعائلات المفجوعة، يتم تحويل جنازة "الشهداء" إلى عيد كبير،[12] إكباراً لمن قدموا أرواحهم لفلسطين وتكريماً لعائلاتهم. تلصق صور الشهيد في الشوارع، ويتوافد الجيران والمعارف لتقديم التعازي؛ فلطقوس الموت مفاعيل علاجية في مختلف المجتمعات. لكن يمكن الاعتقاد أنه وفي الإطار الفلسطيني يمكن أن يكون لهذه الطقوس مفاعيل سلبية على الصغار إذا ضعفت رقابة الكبار عليهم.

- إن نزع الطابع المأساوي عن الموت والتسليم بالقضاء والقدر قد يؤديان إلى تشجيع السلوك شبه الانتحاري لدى الصغار في ظروف من النمو لا ينظر فيها إلى الموت على أنه رحلة لا رجعة منها.

تنقل إحدى الأمهات الحوار التالي مع ابنها البالغ من العمر عشرة أعوام:

- أريد الاستشهاد، لكن أريد أن تصوروا جنازتي بالفيديو.
- لن تتمكن من رؤية الشريط لأنك تكون ميتاً!
- سأقول لك أين تخبئينه وآتي في الليل لرؤيته.

- إن التماهي مع أبطال قتلى بشكل رئيسي لا يمثل مشروعاً يمكن أن يعبئ الفتية.

- بالنسبة إلى صبي يواجه دينامية عائلية يشوبها العنف أو الرفض، وصعوبات في العلاقة بأترابه، ومشكلات الرسوب المدرسي، أو حال الانزعاج الدائمة فقط، يصبح الاستشهاد وسيلة للمصالحة مع الذات والآخرين وإرغامهم على النظر إليه نظرة إيجابية.

سبعة فتيان يعانون إعاقات مختلفة ويعملون في ورشة مدعومة للنجارة ولصناعة السلال في قطاع غزة يروون تجاربهم الصعبة خلال التوغلات الإسرائيلية الأخيرة. من مجموع السبعة المشاركين يعبر اثنان عن رغبتهما في الاستشهاد. عُمر أحدهما، وهو في السابعة عشرة ويعاني شلل الأطفال.

عمر: "قلت لوالدي إني أريد أن أموت شهيداً"، فقال لي: "إذهب وإذا مت لن أبكيك."

المرشد: "لماذا قلت ذلك لوالدك؟"

عمر: "لأجربه وأعرف ما إذا كان يحبني."

المرشد: "قل لي، ماذا فعل والدك يوم أصابك جندي إسرائيلي بجروح؟"

عمر (باعتزاز): "بكى".

لا نرمي إلى البرهان أن وعي الأولاد للخطر إزاء جيش الاحتلال الإسرائيلي ينبع من عوامل نفسية بحتة، وإنما أخْذ هذا التفسير في الاعتبار إذا أردنا على وجه الخصوص تطوير أعمال لحماية الأطفال من الانتقال إلى الفعل الذين يعجزون عن تحمل مسؤوليته نظراً إلى صغر سنهم.

مجموعة من 12 صبياً بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر يتحلقون في الصف حول المرشد في إطار سلسلة من اللقاءات التي قد تساعدهم على تخطي الصدمة التي عانوها. فالمشترك بينهم أنهم فقدوا صديقاً أو قريباً، إذ إن ثلاثة من الأحداث سقطوا "شهداء" وهم يحاولون التسلل إلى مستعمرة في قطاع غزة، وكان أحدهم تلميذاً في المدرسة نفسها. إنهم يعبرون عن حزن عميق أكثر من رغبة في الثأر. يتحدثون مطولاً عن ذكرياتهم مع أصدقائهم، وعن اليوم المشؤوم، وكيف عرفوا بالنبأ، وكيف ذهبوا لتوديع القتلى الصغار – بعضهم إلى مشرحة المستشفى – وزياراتهم المتكررة إلى القبور الثلاثة.

وكان أحد "الشهداء" الثلاثة، المنتمي إلى المدرسة حيث يجري اللقاء، معروفاً لدى الهيئة التعليمية وأُرسل قبل أيام معدودة من مقتله لمقابلة المرشد الاجتماعي. وتبين بعد مقابلة أولى مدى المعاناة التي يعيشها الصبي من جرّاء رسوب مدرسي ووضع عائلي لا يجد لنفسه فيه مكاناً كون والده متزوجاً مرتين. فضُرب له موعد مع المرشد لمساعدته على تخطي صعوباته.

ندرك هنا كيف يجب وضع المخاطرة التي يركبها هؤلاء الأحداث ضمن إطار

الأفكار الانتحارية، وكيف يجب التعرض بالتالي للإشكاليات الفردية. كما ترتبط هذه المخاطرة بعدم فعالية التوجيه الصحيح للعدائية، ويجب أيضاً فهمها في إطار المراهقة إذ تحتوي، مثل أي مخاطرة يركبها الشبان في الدول الغربية، على البرهان على القدرة أمام الأتراب وتدجين فكرة الموت، علماً بأن الإطار الفلسطيني لا يسمح ببروز تحديات محايدة، كالتنافس الرياضي مثلاً.

يبقى أخيراً أنه قد يعمد الراشدون إلى التلاعب بالصغار واستخدامهم للقيام بهجمات على المستعمرات الإسرائيلية. لكن هذه الفرضية تفتقر إلى الجدية، ويبدو أن الأحزاب السياسية باتت شديدة الحذر إزاء هذه المسألة، وتبذل الجهود للحيلولة دون هذه التجاوزات. وإذا كان موضوع العمليات الانتحارية التي يقوم بها الراشدون لا يزال حساساً داخل المجتمع الفلسطيني،[13] وخصوصاً في المناطق التي عانت الكثير من القمع الإسرائيلي (مخيمات غزة وجنين، أو نابلس مثلاً)، فإن من السهل تناول مسألة مشاركة الصغار في العنف السياسي، ولو في إطار مناقشات مع مجموعات من الأهل. وعلى الرغم من أن مجتمعاً مثل المجتمع الفلسطيني يعطي أهمية لاستمرار الجماعة على حساب مصير الفرد، وتسهل فيه تهمة الأنانية الممكن أن تلصق بمن يفضل حماية ابنه، وبشكل عام طفولة هذا الابن، فإن بعض المآسي التي وقعت في الأشهر الماضية شكل صدمة كبيرة للأهل والمدرسين الذين أدركوا مسؤولياتهم في هذا التداخل. ويحاول كل واحد من موقعه أن يساهم في إعادة حياكة نسيج الحياة أمام الصغار ولو أن الأوضاع الخارجية ليست ملائمة لهذه المهمة.

يحاول كثيرون التفكير في وسائل لتأمين الوعي السياسي للصغار من دون التسبب بتجاوزات، وتهيئة لمستقبل مفتوح على احتمالات بناءة لا توصل في المقابل إلى التخلي عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني.

وكما يحدث دائماً في العلوم الإنسانية لا يوجد سبب شرعي وحيد لفهم الدافع لدى أطفال غزة وغيرها من مناطق الضفة الغربية إلى إعلان استعدادهم للاستشهاد ولماذا يصل بعضهم، ولو أقلية صغيرة لكن كثيرة عددياً، إلى تعريض أنفسهم للخطر الشديد. فهناك أسباب كثيرة يختلف تأثيرها في كل حالة على حدة، إمّا تلغي بعضها البعض وإمّا تتكامل في تأثيرها في سلوك الفتى. وقد رأينا كيفية وجوب إعادة وضع الفعل في إطاره بغية فهمه:

- في الإطار السياسي: إنه الاحتلال الإسرائيلي وما يستتبعه من تعديات على حقوق الفلسطينيين الذي يعطي معنى للفعل.
- في الإطار الاجتماعي والثقافي: يجب تفحص ماهية الممارسات الاجتماعية التي تشجع هذه الانحرافات.
- في إطار القوانين العامة لنمو الطفل والمراهق.

- في إطار الإشكاليات النفسية الفردية: البحث عن الرابط بالأفكار الانتحارية وحالات الصدمة المعاشة والفائض من أوضاع الحرمان التي تعصى على السيطرة.

ويمكن من خلال الانتباه إلى مختلف العوامل المؤثرة التوصل إلى رؤية موضوعية للمسألة.

إذا حاول هذا المقال دراسة الوجه المظلم للطفولة في غزة، وخصوصاً لأن كاتبته ترفض تقبل ما تسمعه من تزوير للحقائق، فهناك في غزة وجه آخر للطفولة: هؤلاء الصغار القادرون، وحدهم أو ضمن مجموعة، على نسيان قساوة الأيام ويتسلون باللعب، أطفال يرتادون مركزاً اجتماعياً يوفر لهم أنشطة ترفيهية، أو يلتقون فيه مرشداً اجتماعياً من أجل أنشطتهم الدراسية، أو فتيان لدى ذويهم التفرغ العاطفي الكافي لصرف انتباههم ودفعهم إلى اللعب عندما يسمع إطلاق النار في الخارج، أو أيضاً الصغار الذين هم على ما يرام والذين أكسبتهم الأوضاع الصعبة مزيداً من المرونة بفضل الدعم الذي يلقونه من الأهل والمدرسين والمجتمع. ■

المصادر

(1) Sylvie Mansour, "A Week in Jenin: Assessing Mental Health Needs Amid the Ruins," *Journal of Palestine Studies*, vol. xxxi, no. 4 (Summer 2002), pp. 35-43.

(2) في الضفة الغربية وقطاع غزة قامت منظمات متعددة بتنفيذ برامج دعم نفسي – اجتماعي استجابة لحاجات العائلات التي تواجه أوضاعاً صعبة. ويقوم بأعباء هذه البرامج محترفون يجمعون بين علم النفس والإرشاد الاجتماعي.

(3) "الكوا": نوع من الكوكتيل مولوتوف الحرفي يسهل تركيبه من مواد شائعة من دون الحاجة إلى خبير بالمتفجرات وإلى شخص راشد.

(4) يمكن مراجعة ما كتبته في الموضوع:
Sylvie Mansour, "La génération de l'Intifada," *Cultures et Conflits*, no. 18 (1995); "Jeu et socialisation politique chez les enfants de l'Intifada," in *Sociétés et cultures enfantines,* Textes réunis par Djamila Saadi-Mokrane, Lille, Edition du Conseil scientifique de l'université Charles-de-Gaulle-Lille 3, Travaux et recherches, 2000.

(5) انظر: Fouad Moughrabi, "Les manuels scolaires palestiniens sont-ils antisémites?," *Revue d'études palestiniennes*, no. 82 (hiver 2002), pp. 53-64.

(6) Jews, Israel and Peace in Palestinian School Textbooks: A survey of the textbooks published by the Palestinian National Authority in the years 2000-2001, textes réunis, traduits et édités par Arnon Groiss, co-édité par Yohan Manor, novembre 2001.

(7) Sami Adwan, Analysis of the critics of the CMPI report on the new Palestinian textbooks. Rapport non publié, Novembre 2001.

(8) Nathan J. Brown, "Democracy, History and the Contest over the Palestinian Curriculum," Rapport préparé pour l'Institut Adam, novembre 2001.

(9) Bruno Bettelheim, *Pour être des parents acceptables: Une psychanalyse du jeu* (Paris: Robert Laffont, 2002), p. 418.

(10) Ibid., p. 348.

(11) Eyad El Sarraj, "Lorsqu'il n'y a plus aucune différence entre vivre et mourir," *Revue d'études palestiniennes*, no. 86 (hiver 2003), pp. 3-8.

(12) كانت جنازة الشاب دائماً بديلاً من العرس الذي لم يحظَ به.

(13) El Sarraj, op. cit.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf